محمد محفوظ

السؤال التاريخي

تعددت الايجابات و تشعبت , و اتخذت إبعادا مختلفة , من جراء السؤال التاريخي , الذي أصبح هاجس جميع النخب العربية و الإسلامية منذ بداية بزوغ عصر النهضة .

كيف نحدّث مجتمعنا العربي , و ننجز التقدم , و نسهم في الجهد الإنساني لبناء المستقبل .

ولا نبالغ إذا قلنا , إن تاريخ العرب و المسلمين الحديث , هو عبارة عن تيارات و مشاريع شعارات و سجالات للإجابة على هذا السؤال .

وقد اتخذت هذه السجالات و الإجابات المتناقضة , عناوين مختلفة في تاريخنا , فصراع القديم و الجديد , و الإيمان و الكفر , و الأصالة و المعاصرة , لا يخرج عن هذا النطاق , بل يؤكده و يضيف إليه إبعادا ثقافية و اجتماعية جديدة .

و إن التيارات و الوجودات السياسية و الفكرية العربية , تبلورت في هذا المناخ الصاخب .

و عدم تمكن كل القوى و النخب المتعددة , من إنجاز التقدم , لا يرجع في تقديرنا , إلى نقص نظري أو معرفي , أو قصور ذهني , أدى إلى عدم استيعاب تجربة الشعوب المتقدمة, وإنما يجد تفسيره هذا

الاخفاق , إلى غياب الذات التاريخية الفاعلة , التي تأخذ على عاتقها إنجاز التقدم , و صياغة أجوبة فاعلة على تحديات العصر .

لذلك فإن مهمة العرب و المسلمين المعاصرة , تتجلى في توفير كل أسباب و عوامل إنجاز مقولة الذات التاريخية المجتمعية الفاعلة . فهي وحدها التي تخرجنا من عالم السلب و الهامشية , و تقذفنا في قلب الإحداث و العمليات التاريخية الكبرى .

و ليس من مهمتنا التاريخية , إدانه بعض إعلام النهضة أو تبجيل البعض الأخر , بقدر ما هو العمل على تلمس سيرورة فكرية ــ اجتماعية قابلة للمراكمة و التواصل , لإنجاز تلك الذات التاريخية الفاعلة على مستوى المجتمع والأمة و حركتهما التاريخية .

و بدون هذه الذات الجمعية , تستيقظ كل التوجسات و الشكوك أمام كل مشروع نهضوي , و بهذا يفقد المشروع مهما كانت وجهته و مقصده ,الوقود البشري , و ينتهي مع الزمن مآل هذا المشروع إلى عقول نخبة قليلة العدد و التأثير . وفي هذه الأوضاع , ينعق أصحاب

الضمائر الرديئة , و النفوس المريضة , لتهوين الأمة وإغراقهـــــــــــــا بمشكلات زائفة , لا تزيد الأمة إلا ابتعادا عن تطلعاتها الحضارية .

و تحتدم أيضا في هذه الأوضاع لغة السجال في كل الاتجاهات , و تتضاعف التمزقات و التصنيفات الأيدلوجية و الفكرية , و يغيب في هذا المشهد الفسيفسائي و الـــــــــــسجالي , العمل الجاد لإنهاض الأمة و مواجهة مشكلاتها الحضارية . ولن تلتئم التمزقات و تخبو لغة السجال المميتة إلا بخلق الواقع المجتمعي الدينامي الفاعل , الذي يتجاوز كل مواقع و عناوين الهامشية و التبرير و الابتعاد عن معركة بناء الإنسان و الحضارة .

و من اجل هذا الواقع المجتمعي الجديد الذي هو عبارة عن قراءة متعددة لمحور اساسي من محاور بناء الذات التاريخية , وهو العلاقة مع الغرب و الحضارة الحديثة .

و حوارات الإسلام و الغرب , من الأهمية بمكان أن تتجه ابتدءا إلى نقد مفاهيم كل طرف السائدة عن الأخر , للوصول إلى وعي حقيقي عن كل طرف , و ذلك لكي يكون لمشروع الحوارات تأثير

مباشر وجوهري على الداخل العربي و الإسلامي , في تكوين إرادة جماعية أو توحيد الجماعة الوطنية , من خلال الارتفاع بمستوى المفاهيم الأيدلوجية , وتكوين فهم جديد مشترك , لواقع جديد و مشترك أيضا .

و ذلك لأن كل التجارب السياسية و الثقافية , التي انطلقت في الداخل العربي و الإسلامي , على قاعدة تجاوز الحقائق , و القفز على القوى المتوفرة , لم يكن مصيرها إلا الفشل أو النجاح الجزئي , الذي يخلق تداعيات معقدة أقل ما يقال عنها إنها طردت كل الثمار الايجابية لذلك النجاح الجزئي .

فالغرب اليوم بما يشكل من ثقافة و حضارة و امتداد سياسي و اجتماعي في فضائنا العربي و الإسلامي , أضحى حقيقه قائمة لا يمكن التغافل عنها . كما أن الإسلام بما يشكل من عمق تاريخي و ثقافي و حضارة , و قوى سياسية و اجتماعية , أصبح واقعا مشهودا و ملموسا .

و الحل ليس في أن يسعى كل طرف , إلى نكران قوة الأخر , لان النكران , لا يؤدي إلا إلى القطيعة , و الصراعات المحمومة ذات الطابع السلبي و التدميري .

لذلك فإن الحل يتجسد :

1ـ في إعادة تشكيل الوعي الاجتماعي لدى كل قوة و طرف , بحيث يكون وعيا اجتماعيا متواصلا , لا تمنعه الاختلافات العقدية و السياسية , من التواصل و الحوار و التفاهم المباشر .

2ـ الارتفاع بمستوى المفاهيم الأصلية لدى الجماعات الوطنية , و ذلك ليس من أجل قسر الأطراف الضعيفة على الذوبان , و إنما من أجل إنجاز فهم مشترك و متبادل و بشكل دقيق و واضح .

3ـ و إن هذا الفهم المشترك , لا يكون فعالا , إلا إذا تشكلته إرادة جماعية , لإثراء الفهم المشترك , و إيصاله إلى أقصى مستوى ممكن من التفاهم و التنسيق .

لذلك فإن المطلوب , ليس أن ينادي كل طرف بضرورة الحوار و الفهم المشترك , و إنما لابد إثراء هذه الضرورة بحقائق اجتماعية ـــ ثقافية ـــ سياسية ـــ حضارية , حتى تتشكل الاراده الجمعية الفاعلة , و المتجهة إلى إثراء التجربة الإنسانية , عبر توفر جملة من الشروط المادية و المعنوية , التي لا يمكن إنجازها إلا بمساهمة و مشاركة مختلف التنوعات التاريخية و الإنسانية .

و بهذه الطريقة تكون المفاهيم المستخدمة (حوار ـــ تسامح ـــ تفاهم) ذات مدلولات علمية ـــ حضارية , اشتراك الجميع في بلورتها و إنضاجها .

فالحوارات لا توصل إلى علم حقيقي و فهم جوهري , إلا إذا اتجهت إلى الكشف داخل المفاهيم الجامعة عن أشكال تحققاته المختلفة .